

بسم الله الرحمن الرحيم

فاطمة الزهراء: القدوة الكاملة للمرأة المسلمة

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمها خديجة أم المؤمنين، كانت أصغر بنات النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت سيدة النساء في زمنها، وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام أنه كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع، والسيدة فاطمة رضي الله عنها إحدى هؤلاء الأربع، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ)). ولدت قبل البعثة بقليل، تزوجها الإمام علي كرم الله وجهه في ذي القعدة من سنة اثنتين بعد وقعة بدر، لها من الأولاد الحسن، والحسين، والمحسن، وأم كلثوم، وزينب، أبناء علي بن أبي طالب، وكان عليه الصلاة والسلام يحبها، ويكرمها، ويسر إليها، ومناقبها غزيرة، وكانت رضي الله عنها صابرة، دينية، خيرة، قانعة، شاكرة لله عز وجل.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ)). سُئِلَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ: ((أَيُّ النَّاسِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: فَاطِمَةُ، فَقِيلَ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَتْ: زَوْجُهَا، إِنْ كَانَ مَا عَلِمْتُ صَوَامًا قَوْمًا)).

السيدة فاطمة الزهراء كانت واحدة زمانها، وعظيمة دهرها، لما تهيأ لها من الكثير من مشاهد النبوة والوحي، فقد صحبت أباها من نعومة أظفارها إلى أن فارقتها النبي صلى الله عليه وسلم، يوم التحق بالرفيق الأعلى، على مدى ربع قرن . فقد كانت مع النبي، وشهدت كل أحداث الدعوة، شهدت معاناة النبي في مكة، شهدت الهجرة، شهدت الغزوات، كل المعاناة التي عاناها النبي كانت إلى جانبه، لذلك كانت رضي الله عنها شديدة الحزن على أبيها عليه الصلاة والسلام، فهي لم تعرفه إلا نبياً مرسلًا من عند الله تعالى، وهي دون الرابعة من عمرها، فلم تكدي على الدنيا إلا ويملاً سمعها أحداث تبليغ الدعوة ونشرها، وبثها بين جموع قريش، لهذا احتلت فاطمة الزهراء تلك المكانة العظيمة، ليس عند أبيها فحسب، بل عند جميع المؤمنين والمؤمنات. لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لم يزوجها إلا لرجل كفاء لها، من كان زوجها؟ ربيب النبي عليه الصلاة والسلام الذي رباه، وحامل لوائه، وناصره على أعدائه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا غرابة أن الله تعالى يباهي جميع خلقه بفاطمة ابنة حبيبه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما حباها من تلك الخصال والصفاء.

سيدنا علي لم يكن ليتقدم لخطبة فاطمة من أبيها إلا على وجل شديد لما يعلم ما لها من المكانة العظيمة عنده صلى الله عليه وسلم، وما لها من الحب الكبير في نفسه الشريفة، فكان يتحين الفرص المواتية ليتقدم إليه بهذا الطلب الغالي، وطال انتظار علي سنين عدداً، أنه لا يملك مهرها،

وليس في يده مال، ثم زاد إجماعه، حينما بلغه أن الصحابييين الجليلين خطباها، سيدنا أبو بكر خطبها، سيدنا عمر خطبها، وحين شعر الصحابة برغبة علي في خطبة فاطمة، شجعه على مراده بعض أصحاب رسول الله، وأخذ يزيده في الترغيب بما له من قرابة النسب، ومنزلة أبويه من قلبه الشريف، أبوه أبو طالب، وأمه فاطمة بنت أسد، وكانت للنبي صلى الله عليه وسلم حين كفله عمه أبو طالب أمماً بعد أمه. يوجد مداخلات، قرابة شديدة، مكانة عالية، فوقف علياً رضي الله عنه ملياً يفكر، هو بحق أجدد الناس بفاطمة بنت رسول الله، إنه كان قد تربى، وعاش في حجر النبي، ولم يفارقه، فزاد هذا في أمله، فتشجع، وطلب من النبي فاطمة. قال: ((فما راعه إلا أن التفت إليه صلى الله عليه وسلم، وسأله مترفقاً، هل عندك شيء؟ فأجابه علي كرم الله وجهه: لا، يا رسول الله، فذكره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أصاب يوم بدر درعاً، فقال له: فأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟ فأجاب علي رضي الله عنه: هي عندي يا رسول الله، قال له: فأعطها درعك. ثم بيعت الدرع بأربعمائة وسبعين درهماً، فجهزت بها عروسه، وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج علي على ابنته فاطمة رضي الله عنهما، وأسكنها صلى الله عليه وسلم قريباً من بيته وقال صلى الله عليه وسلم لعلي قبل ليلة الزفاف: لا تحدث شيئاً حتى تلقاني، فدعا بإناء، فتوضأ منه، ثم أفرغه على فاطمة وعلي، وقال: اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما)). قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَوْتَةً)).

وتم زواجهما على بركة الله تعالى، وكان عمر العروس فاطمة يوم زواجها من علي بن أبي طالب ثمانية عشر عاماً، وكان علي زوجها ستة وعشرين عاماً، فكانا قريبين من أحلام أمثالهما، غير أنهما كانا منصرفين إلى ما هو أسمى من كل ذلك، إنهما تابعا السير في سبيل نشر الدعوة. فهذا علي رضي الله عنه ينصرف مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزواته، وهذه فاطمة تستمر في نهجها بين نسوة الأنصار، والمهاجرين، وفتياتهم، تثبت فيهم روح الدعوة الإسلامية المنفتحة، الممتدة في ربوع الحجاز، وكان زوجها علي بن أبي طالب لا يفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً إلا ما كان في غزوة تبوك حين استخلفه في المدينة، ((رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتَخَلَّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي)).

كان إذا عاد من غزوة غزاها أو سرية قادها، عاد إلى بيته، وجد زوجته بانتظاره، قد هيأت له أسباب الراحة، لتخفف عنه بعض ما وجدوا من عناء السفر والغربة عنها. امرأة ترعى حق زوجها، تخفف عنه آلام الحياة، آلام العمل، الحياة فيها ضغوط شديدة.

لم تكن حياة فاطمة في بيت زوجها مترفة، ولا ناعمة، شأنها في ذلك، شأن حياتها عند أبيها قبل زواجها، حياة خشنة. فانصرف هذا الصحابي الجليل، ابن عم النبي، إلى نصرته صلى الله عليه وسلم، ونشر التوحيد بين الناشئين، فشغله ذلك عن سبيل الثراء، الذي كان أشرف قريش، قد وجهوا شبابهم إليه، فلا عجب إن رأينا هذا الصحابي الجليل، لا يملك مهراً لزوجته سوى درعه،

وحال سيدنا علي قبل الزواج، لم يكن خافياً على السيدة فاطمة، فكان حال سيدنا علي واضحاً للسيدة فاطمة، وكانت تعلم أن علياً لم يكن ثرياً، لذلك لم تفاجأ بالجهاز التي جهزت به، كان مؤلفاً من خميلة ووسادة، حُشيت ليفاً، وإناء وسقاءين وشيء من العطر، وهي في هذا راضية كل الرضا، لأن هذا الزواج كان برضا أبيها، لذلك كانت فاطمة سعيدة كل السعادة في بيت زوجها علي رضي الله عنه على ما كانت عليه من شطف العيش .

كان علي رضي الله عنه، كلما عاد إلى بيته، يرى فاطمة متعبة راضية، فيساعدها في بعض أعمال البيت القاسية في كل وقت، مكنته الظروف من ذلك، حيث كان غير قادر على أن يستأجر لها خادماً، أو أن يشتري لها أمة، تقوم عنها بأعباء البيت، فكان هو يخفف عنها بعض عناء البيت. ف جاء عليّ مرةً فرأها، وهي تسقي من البئر، حتى اشتكت صدرها، فقال رضي الله عنه: ((قد جاء الله بسبي، فاذهبي إلى رسول الله فاستخدمي، -أي ائتي بخادمة- فقالت: وأنا والله قد طحنت، حتى مَجَلَّتْ يداي، فأنت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما جاء بك أي بنية؟ استحييت، قالت: جئت لأسلم عليك، واستحييت أن أسأله، ورجعت فأتيناها جميعاً. جاءت بسيدنا علي، فذكر علي حالها، -أن ابنتكم متعبة العمل شاق، جسمها ضعيف، فهل من خادمة؟- فقال صلى الله عليه وسلم: لا والله لا أعطيكما، وأدع أهل الصفة، تتلوى بطونهم، ولا أجد ما أنفق عليهم)). النبي عد المؤمنين أسرة واحدة، ما أعطى ابنته خادمة، وهناك فقراء، يتلؤون من الجوع . عَنْ عَلِيٍّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمْ، إِذَا أَخَذْتُمْ مَصَاجِعَكُمْ، أَوْ أَوَيْتُمْ إِلَى فِرَاشِكُمْ؟ فَسَبْجًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدًا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبْرًا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا تَرَكْتُهَا بَعْدَمَا سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِينِ؟ قَالَ: وَلَا لَيْلَةَ صِفِينِ؟))

لقد كان لفاطمة رضي الله عنها، ولزوجها علي كرم الله وجهه، وابنهما الحسن والحسين مكانة عظيمة، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ بِكِسَاءٍ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ فَجَلَّلَهُ بِكِسَاءٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا)).

عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: ((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ سَمْتًا وَهَدْيًا وَدَلًّا، وَقَالَ الْحَسَنُ حَدِيثًا وَكَلَامًا، وَلَمْ يَذْكُرِ الْحَسَنُ السَّمْتَ وَالْهَدْيَ وَالِدَلَّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَاطِمَةَ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهَا، كَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، قَامَ إِلَيْهَا، فَأَخَذَ بِيَدِهَا، وَقَبَّلَهَا، وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا، قَامَتْ إِلَيْهِ، فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ، فَقَبَّلَتْهُ، وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا)).